مقابلة مع صونيا شيخ

أجراها معها برغيت مينيل وستيفان نوفوتني ترجمة: خالد ولدقاسي

لنتحدث بداية عن اسم الجمعية التي تنتمين إليها، ليزنغرينور Les Engraineurs، لأنه يبدو لي أن هذا الاسم يكتنفه شيء من اللبس. هل لك أن تشرحي لنا معنى هذا الاسم؟ أو أن تقولي لنا من هم هؤلاء وماذا يفعلون؟

Les Engraineurs اشتقت من الفعل "engrainer" الذي قد يحمل معنى إيجابيا أو سلبيا: فقد تستخدم في "engrainer à faire quelque chose"، أي ما معناه بالفرنسية الفصحى "القيام بشيء ما مع جماعة من الأشخاص"، أو قد تعني "دفع شخص ما إلى القيام بعمل قد يكون حسنا أو قبيحا". أما فرقة ليزنغرينور فقد انبثقت عن تجربة خاضتها مجموعة من الشباب مع أستاذ اللغة الفرنسية الذي دفعهم إلى كتابة سيناريو وإلى القيام بأعمال سينيمائية، فأعجبو بالسينما وانجروا في هذا النشاط، وهكذا أنشئت جمعية ليزنغرينور.

لنعد إلى المعنى المزدوج لكلمة "engrainer"، فهذه الكلمة قد تعني أيضا زرع البذور وبالتالي هذا يعني أن هناك كثيرا من البراعم التي ستنبت وتنمو. إذا- هذه الكلمة تحمل معنيين.

نحن نعمل كثيرا مع المراهقين في الأحياء الشعبية وكذلك مع الكبار والشيوخ في بعض الأحيان. نقوم بتصوير أعمال خيالية ووثائقية وريبورتاجات..لكن هدفنا الأول هو تمكين الناس من التعبير عن وجهات نظرهم وآرائهم عبر الوسائل السمعية البصرية. قد يتم ذلك عبر الرقص أو الموسيقى أو الرسم، وفيما يخص فرقتنا وقع الاختيار على الفيديو.

ما هو دور أو أهمية الإنتاج السمعي البصري فيما يعرف "بالضواحي الفرنسية"، أي في الأحياء المتاخمة للمدن؟

الشيء المهم هو التحكم في الوسيلة السمعية البصرية. هذا له أهمية كبرى لأن الضواحي يشار إليها بالأصابع دائما وعندما يتم إظهارها في الصور بطريقة معينة نحاول أن نقول لهم: نحن نعيش داخل هذه الضواحي، نحن في الداخل، ولدينا وجهة نظرنا للأشياء، نحن نعلم كيف تجري الأمورهنا وسنريكم ذلك. ولا نرغب في تجاهل الجوانب السلبية لكن لن نركز على السيارات التي تحرق أو ما شابه ذلك. فهذا ليس كل ما في الضواحي. بل هناك من بين سكانها من يقومون بأشياء جميلة. وأرى أنه من المهم أن نظهر هذا الجانب لأن وسائل الإعلام الرئيسية أهملته.

هل لك أن تحدثينا أكثر عن طرق الإنتاج والعمل المشترك؟

كل ما ننتجه ليزنغرينور يعتمد على المساعدات المالية العامة التي تمنحها الدولة سواء عبر المقاطعة أو البلدية. هذه المساعدات المالية تساهم أيضا في إنتاج أفلام، أليس كذلك؟ وبالتالي فإن تصوير أفلامنا يعتمد على هذه المساعدات. لكن يمكننا أيضا إنشاء مشاريع لا تحظى بأي دعم مالي. وفي هذه الحالة نعتمد على التمويل الداخلي، وهذا شيء مختلف تماما. ولكي نجمع الأموال اللازمة نقوم مثلا ببيع مشروبات أو أشياء من هذا القبيل، أو قد نبيع أقراص دي في دي لأحد أفلامنا. لكن أظن أنك كنت تريدين معرفة طريقة صنعنا لهذه الأفلام...

...نعم، وكيف يتم التعاون بين الشباب وأعضاء الجمعية: هناك أشخاص مختلفون يقومون بأعمال مختلفة ومحددة، فمنهم من يساهم بأفكاره ومنهم من يساهم بخبرته أو بمهارة معينة كالمونتاج مثلا.

أجل، هناك أشخاص متخصصون كل حسب وظيفته في المنظومة. لدينا مديرة تتكفل بإدارة كل ملفات المساعدات المالية ولدينا منشطون يشرفون على الكتابة الجماعية للنصوص، أي أنهم المتحدثون باسم المنظومة في ورشة ما وهم الذين يتكفلون بتنشيط الورشة. ثم لدينا التقنيون المتخصصون في المونتاج والتصوير والهندسة الصوتية. كل هؤلاء الأشخاص لا يتلقون بالضرورة أجرا من الجمعية، فقد يقومون بعملهم كمتطوعين. وهذا يسبب مشاكل في بعض الأحيان لأنهم لا يمكنهم الحضور كل الوقت وبالتالي علينا أن نتدبر الأمور وحدنا.

هل هذا يعني أن المسؤولين عن ورش الكتابة هم أعضاء في الجمعية في حين أن المصورين وغيرهم من التقنيين ليسوا كلهم أعضاء فيها؟

هناك عدة حالات، فهناك أشخاص في الجمعية تدربوا مع الوقت، أي لم يتلقوا تدريبا في مدرسة متخصصة ولم يتلقوا شهادات في نهاية تدريبهم. كل هؤلاء التقنيين ساهموا بخبرتهم ونقلوها إلى غيرهم. وبالتالي كان هناك تدريب داخل الجمعية أغناها عن الاعتماد على غيرها وساهم في نقل المهارات.

أنتم شبكة إذا؟

كل واحد منا يستطيع القيام بمهام مختلفة. أنا مثلا قادرة على أن أقوم بمونتاج فيلم كما أستطيع إعداد ملف دعم مالي، ويمكنني أيضا تنشيط ورشة كتابة. ثم لكل واحد أن يختار ما يفضل القيام به، كأن تفضل التصوير على المونتاج أو أن تهتم بالتنشيط فقط. لكن نظرا إلى قدراتنا بدى لنا مهما أن يكون للجميع قدر أدنى من التدريب لإتمام مشروع ما إن غاب المتطوعون عن الجمعية.

وفيما يخص الشباب، المراهقون ليسوا هم الذين ينشطون الورش. بل نحن نقوم بتأطيرهم في هذه الورش. وبما أنها أعمال جماعية يساهم الشباب في تنشيط النقاشات أو المواضيع المحورية. لكن لا يقوم الشاب بتنشيط ورشة هكذا دون أن يكون ذلك في إطار مشروع ما. على سبيل المثال، في السنة الماضية، كان هناك شاب يعمل على مشروع مع موزيك أفونير. وكان عليهم أن يصوروا مشهدا ويبثوه مباشرة على الهواء. وكان هذا الشاب هو الذي

بادر بهذه الفكرة، وبالتالي كان ينسق بيننا وبين الجمعية الأخرى. وهذا منحه شعورا بأنه قام بعمل جيد لأنه كان عليه صياغة المشروع والتفكير في كيفية تنظيم عمل الفريق إلخ.

أنا بنفسي تعلمت كيف أقوم بكل ذلك مع الجمعية لكنه استغرق وقتا طويلا. انضممت إلى جمعية ليزانغرينور في عام 2000، وهذا منحني وقتا كافيا للتعلم وتنمية قدراتي والتفكير في كل ذلك قبل أن أنطلق من جديد. وفي خضم ذلك حدث تغير على رأس الجمعية التي أصبح لها إدارة جديدة ومن ثم صارت لديها أهداف جديدة. أنا أفضل الجمعية كما هي اليوم. ففي البداية كان لدينا الشيء ذاته لكن مررنا بفترة كانت فيها الأمور غامضة إذ أصبحت الجمعية مطية لبعض الأشخاص للوصول إلى وسائل الإعلام الكبرى أو ليصبحوا مخرجين كبارا وهذا مخالف لما كانت تهدف إليه الجمعية عند إنشائها. أي أن الأمور تغيرت تماما ونسينا أن الجمعية لها أهداف اجتماعية وأن السمعي البصري ما هو إلا وسيلة.

تحدثتي عن وصم الضواحي ولا سيما شباب الضواحي. إلى أي حد تعتبرين أن الأعمال التي تقوم بها جمعية ليزنغرينور هي إنتاج سمعي بصري يناقض الصور النمطية السائدة في وسائل الإعلام الكبرى عن الضواحي؟

هدفنا هو أن نبين الأشياء التي لا يبينونها هم. في بعض الأفلام التي صورتها ليزنغرينور نرى مشاهد لسيارات أحرقت لكنها مصورة بطريقة مختلفة. فطريقة التصوير واستجواب الناس أو الإخراج تختلف عما نراه في قناتي تي إف1 وفرانس 2 ، أي أننا نبتعد عن الصور النمطية. وبهذه الطريقة نسعى إلى أن يتخلى الناس عن الصور النمطية التي صاروا يؤمنون بها أنفسهم لأنهم عودوا عليها. ودورنا هنا هو أن نقول لهم أنتم مخطئون، فلا ينبغي عليكم أن تؤدوا هذا الدور الذي ألصقوه بكم. هذا هو الدور المهم الذي نضطلع به. وهناك شباب لم يقعوا في هذا الفخ ويهتمون بأشياء أخرى أي أنهم يريدون إظهار أشياء مختلفة.

ألا ترين أن هناك أحكاما مسبقة خاطئة عن الضواحي في ما تعرضه وسائل الإعلام الكبرى؟ ألا ترين أن هناك مشكلة مركزية في تصوير الحياة في الضواحي حيث يتم التركيز على الجوانب التي تصور بشكل خاطئ؟

أجل، فعلى سبيل المثال يتم عرض العنف بشكل سيء جدا، فالصور التي تعرض توح لنا بأننا في حالة حرب بينما الواقع غير ذلك. وفي الوقت ذاته، فإن هذا العنف لا يحدث بغير سبب، بل هو نتيجة تراكمات تكبر وتكبر إلى حد الانفجار. وإلى جانب ذلك هناك أيضا أحداث عنف يومية مثلما تحدث في أي مكان آخر، قد تحدث حتى في قرية صغيرة، شخص قتل شخصا آخر لأنه سرق البطاطس من حقله، وهنا أيضا في أحيائنا قد تحدث جريمة مماثلة لكن بسبب سرقة المقتول دراجة القاتل النارية. فنحن أمام حالات متشابهة، إلا أنها عندما تحدث في الضواحي فهذا يسمح للسياسيين بوجه التحديد بوصم هؤلاء الناس وتخويف السكان بقولهم "انظروا، هؤلاء الأشخاص مخيفون ويشكلون خطرا إلخ". وهناك أيضا رسالة سياسية وراء ذلك. وبالتالي يتم كسر التضامن الذي قد ينشأ بين الأوساط المختلفة. وأنا إذا تحدثت عن القرى فذلك لأنها في نظري تشبه الضواحي، فهي مقصاة من كل شيء، ولا توجد فيها خدمات عامة كالبريد ولا أطباء إلخ. وهكذا فإن واقع الضواحي يشبه واقع القرى حيث يجد الشخص نفسه معزولا. وقد نسمع بعضهم يقول "القرى الفرنسية جميلة، أما الضواحي الفرنسية فكل شيء

فيها قبيح"، لكن في واقع الأمر حتى القرى الفرنسية الحياة فيها رديئة، لأن غياب الخدمات العامة يشكل خطرا. فالشخص الذي يقطن وسط حقله ولا يخرج للتسلي ولا تتاح له فرصة الاستفادة من المنتجات أو العروض الثقافية أو وسائل الإعلام وغيرها ...لا يمكنه أن يكون شخصا متفتحا يمكنه أن يندمج في المجتمع.

وفي هذا السياق، ما هي النتائج التي نجمت عن الاضطرابات التي شهدتها الضواحي في خريف 2005 ؟ هل يمكننا القول أن الأمور تغيرت؟ هل حدث تغيير على صعيد النهج والاستراتيجيات - ليس بعد الأحداث فحسب ولكن من حيث التصورات أيضا؟

كلا، لم تتغير الأمور، لا بل على العكس، تعمقت المشاكل وزادت حدتها. ما تغير على صعيد الخطط السياسية هو القول "ينبغي تهدئة الأوضاع، لكن كيف نفعل ذلك؟ سنخصص بعض الأموال لتحسين حال السكن كي يتناسب مع المعايير المتبعة". بيد أن الأمور لن تتحسن فعلا ما لم نعالج المشكلات الاقتصادية، أي البطالة، والمشكلات الاجتماعية والثقافية، كصدام الحضارات، وحتى المسائل المتعلقة بالكتابة والقراءة. يبدو الأمر في نظري كوضع قمامة في شقة نظيفة وجميلة. وهذا هو حالنا في حقيقة الأمر. وبالتالي، فإن تجميل الأمور من الخارج والإبقاء على الداخل السيئ لا يغير شيئا. وضع السياسيون خططهم بناء على هذه الدينامية دون أن يعوا بأن الاضطرابات نتجت عن مشاكل ذات أهمية بالغة. أعلم أن السكن الاجتماعي مهم، بيد أنه من المهم أيضا أن يحصل الناس على وظائف ويتعلموا القراءة والكتابة ويتمتعوا بالثقافة ويتبادلوا فيما بينهم وأن لا يتقوقعوا في مجتماعتهم. لقد أدت كل هذه المشاكل إلى الطائفية وبالتالي الانغلاق عما هو متاح في فرنسا. وتتعزز الحدود بالقول: "أنتم هنا ونحن هناك وليس ثمة وسيلة أو جسر صغير لتجاوز الحدود". هذه هي حقيقة الأمر بالنسبة لي. وما حدث عام 2005 لم يغير شيئا في حد ذاته.

ألا يمثل ما حدث نقطة مرجعية؟

كلا ليس نقطة مرجعية. كان الوضع خطيرا لفترة قصيرة. لكن ما كنت أتمنى أن يحدث بعد اضطرابات 2005 هو أن تدرك الطبقات الشعبية التي اتخذت موقفا سياسيا في وقت معين ونزلت إلى الشوارع أن لها الحق في الحصول على وظائف جيدة وأن يتعامل معها المجتمع كأناس عاديين وليس كأشخاص وضعوا في أقفاص المساكن ذات الإيجار المعتدل لا يلتفت إليهم إلا وقت الانتخابات ليهملوا بعد صدور النتائج. وأنا يغضبني ويزعجني كثيرا ألا يتفطنوا لكل ذلك لأننا، في رأيي، كثيرون ويمكننا أن نؤثر في قرارات السياسيين.

إلى أي مدى خلقت أحداث خريف 2005 نقاشات أو أدت إلى تكثيف النقاشات؟ أو بالأحرى " لماذا كل هذا الزخم فجأة في وسائل الإعلام"؟

صحيح أنه دارت نقاشات كثيرة حول اضطرابات خريف 2005 وطرحت المسائل المتعلقة بها، لكن الأشخاص ذاتها تطرقت إلى هذه الموضوعات وهي التي تفعل ذلك ليلا ونهارا. وأثناء الاضطرابات، تكثفت النقاشات، لكنني أنظر إلى الأمر على أنه لعبة كبيرة: فكل شخص يسعى إلى الظهور كأول من يطرح هذه الإشكاليات وإلى

التأثير في الرأي العام بأسرع وقت ممكن، لكن بأي وسيلة؟ هل طرحت نقاشات وطنية عامة كبرى حول مسألة وسائل الإعلام، وكيفية معالجة مشاكل الضواحي، والشرطة التي تطارد الشباب؟ فقد جرى التطرق إلى هذه المسائل عن بعد، وخدع الناس بمشاهدة صور النيران والقمامة المشتعلة والشرطة التي تصرفت وكأنها في ساحة حرب ووراءها صحافيون يصورون وهم يرشقون بالحجارة. هذه هي الصورة التي بينتها وسائل الإعلام. أعتقد أنه كان من المفروض أن يتم التفكير في بعض القضايا: كمسألة الشرطة، هل ينبغي للشرطة أن تطارد شابا يركب دراجة نارية دون ارتداء خوذة ؟ يا له من أمر غريب أن يلجأ بعض الشبان إلى الاختباء في غرفة كهرباء بعد ملاحقة الشرطة لهم لمجرد ارتكابهم حماقة. لم يتطرق أحد إلى هذه المسائل لأنها تؤدي إلى مساءلة الشرطة الوطنية أي اتهام الدولة والاعتراف بالخطأ في الوقت ذاته. جرت محاسبة بعض الشرطيين الذين قاموا بهذه الأعمال لكن أطلق صراح البعض الآخر. وهذه إهانة لأن النشرات الإخبارية لم تتطرق إلى الموضوع إلا لثلاث دقائق أو حتى ثلاث ثوان. إذا كلا، لم تطرح نقاشات جدية، ولم يخصص الوقت الكافي لاتخاذ المواقف ومناقشة هذه المسائل.

دار أحاديث كثيرة عن الجوانب "المضادة"، كضرورة إيجاد تبيان مضاد على سبيل المثال، أو تصورات مضادة لمواجهة وسائل الإعلام الكبرى والسياسة السائدة. فماذا يحدث إلى جانب هذه الحركة "المضادة" ؟

يتم ذلك بأشكال عدة. نحن مثلا، أنشأنا جمعية تقترح القيام بنشاط ما يمكن الأفراد في وقت معين من التعبير عن وجهة نظرهم حول الواقع الحالي والمسائل التي تسلط عليها وسائل الإعلام الضوء. وثمة أفراد يفعلون ذلك عن طريق الموسيقى والغناء "كموزيك أفونير" مع عبدالله[1] مثلا. فالموضوعات التي يتطرقون إليها في أغانيهم تطرح مسائل حول المجتمع وموضوعات عامة أخرى ولا تقتصر على الضواحي، فقد تتطرق إلى البيئة أو تاهيتي أو نهاية العالم أو الكوارث الطبيعية. وهم يتطرقون إلى هذه المواضيع لأنهم معنيون بها، فهم جيل الغد ويبدو العالم الذي سنتركه لهم مخيفا. وتجري المواجهة إذا بواسطة المشاركة والمساعدة والتضامن بين الأفراد. ولكن ليس هناك شبكات كبيرة لإيصال هذه الأصوات غير وسائل الإعلام الحالية. هناك أشخاص معروفون ينشرون الرسالة إلا أن ذلك ليس كافيا.

كيف تنظرين، فيما يخص عملكم، إلى الوضع ما بعد الاستعمار أو إلى تاريخ الهجرة ؟ نطرح هذا السؤال لأن هذه الواضيع وإن كانت حاضرة في أفلام جمعية "اليزنغرينور" ليست مواضيع رئيسية أو بارزة.

الهجرة بالنسبة لنا هي آباؤنا وأجدادنا. أعتقد أن لدينا تصورا عن هذا الموضوع دون أن ندرك ذلك، لذا لن نشدد عليه. وقد تعمدنا في جمعية "اليزنغرينور" ألا نشير إلى الأشخاص بالقول : "ها هي الجزائرية أو ها هي المغربية". لكن قي الوقت عينه، لدينا مواقفنا الخاصة فيما يتعلق بالهجرات الناتجة عن أسباب عدة، كتلك المرتبطة بالحرب العالمية الثانية وباليد العاملة التي كان ينبغي إيجادها في وقت ما وبشعوب استغلت إلى أقصى الحدود. ثمة تاريخ غائب أيضا، تاريخ لا يعترف به في فرنسا: إذ لا يدرس الشباب في الكتب المدرسية عن

1 انظر المقابلة مع عبد الله بن سعيد في هذا العدد من مجلة "ترانسفيرسال".

حرب الجزائر، والأمر ذاته ينطبق على الاستعمار في إفريقيا- فتتحدث الكتب عن العبيد لكن بصورة سطحية دون التطرق إلى ما حصل فعلا. وبالنسبة للعديد من الأشخاص وبالنسبة لي على وجه الخصوص فكأنما التاريخ قد سرق دون أن يكترث لذلك أحد. لكن وجود آبائنا وأجدادنا هنا يدل على وجود تاريخ. ومن المهم الاعتراف بهذا التاريخ إذ سيمكن ذلك الناس من التصالح مع الماضي.

تحتوي أفلام جمعية "ليزنغرينور" على الكثير من الفكاهة. فما هي أهمية الفكاهة أو حتى الحيل التي قد تساعد في تدبر الأمور وفي مواجهة السلطات المختلفة (الحكومة والعائلة) وإضحاك الناس بطريقة مباشرة؟

نعم الأمر كذلك. نعالج الإشكالية من زاوية فكاهية لكي نتفادى الخطابات التي قد تكون مملة وكي لا نكرر الجمل التي تتردد عن الضواحي. وذلك يساعد المساهمين في هذه الأعمال على القيام بتحليل ذاتي وربما مراجعة أنفسهم. وأظن أن تقديم الأمور في صورة فكاهية بدل استخدام خطاب مصاغ بشكل جيد يوصل الرسالة بسهولة أكبر مع تفادي العنف وإيذاء الأشخاص الذين يقومون بالعمل. ونعتبر الفكاهة وسيلة لنقول نحن في واقع الأمر لسنا بأشرار. فلا مشكلة إذا ضحكتم علينا أو ضحكنا عليكم. المهم هو أن نلتقي في وقت ما على الطريق ذاته حتى ولو كان ذلك معقدا بعض الأحيان.

سونيا شيخ هي عضو في جمعية "ليزنغرينور" التي يوجد مقرها في مدينة بانتان (محافظة سين سان دوني) في حي "كورتيير" (Courtillières). تنظم هذه الجمعية منذ عام 1998 ورش كتابة وإخراج سمعي بصري يشارك فيها شباب تتروا ح أعمارهم بين 12 و25 عاما. للمزيد من المعلومات نرجو زيارة الموقع الإلكتروني http://les-engraineurs.org/.

لمطالعة كل نصوص مجلتنا الإلكترونية عن "لغات الضواحي" – المتوفرة أيضا بلغات أخرى – يمكنكم زيارة هذا الموقع:
http://eipcp.net/transversal/0113